صور من الحياة :

قلب أب !

للاستاذ كامل محمود حبيب

— ٤ —

وعقد أبوك العزم على شأن يخصكم به — يا صاحبي — ليكون كفاءة الزلة التي ارتكب على حين غفلة منه في اليوم الأسود ، فدفعكم جميعاً إلى المدينة ، إلى المدرسة . وابتسم في رضى وهو يراك تتأنق في البذلة والطربوش وعلى وجهك سيما الخيـــلاء والزهو ، وطرب حين ألفاك تختال في كبرياء وصمر . ولدى باب الفصل وقف أبوك يودعك وهو يقول « الآن — يا بني — أصبحت رجلا تتلقى العلم وتسوس الدار وتحفظ أخويك وتداب على العمل وتندفع إلى الغاية التي أصبو إليها. وهذا مالي ومالكم بهيء لكم الحياة الكريمة والطعام الطيب والمسكن الجميل واللباس الجديد ، وبين يديك الخادم الذي تناديه فيأبى وتأمره فيطيع . وإن بينك وبيني ساعة أو بعض ساعة فاكتب لي دائما برغبات روحك وحاجات نفسك ، لا تخفي عني شيئاً ... » وودعك وفي عينيه عبرات ترقرق وفي قلبه وجيب يضطرب

وبدا للفتاة الحمقاء — زوجة أبيك — أن الدار قد خلت لها فاهتزت أعطافها من أثر النشوة والطرب ، وراحت تتقرب إلى زوجها — أبيك — بأساليب شيطانية ، وتدغدغ عنها أن الأب لا يبيع أولاده بالثمن الغالي ؛ ولكن قلب الرجل كان قد اطمأن فهدأت الثورة المضطرمة التي اجتاحته حيناً من الزمن ، فاستقرت الحياة في الدار هوناً ما

ومرت السنون تؤجج فيك روح الرجولة القوية السامية ، الرجولة التي تدفقت في نفسك يوم أن أحسست بالصفعة العنيفة تلطمك في جفاء وقسوة فتفزعت عن الدار والأب والأهل جميعاً؛ فمكفت على الدرس لا يصرفك لهو ولا تشغلك لذة ولا تلهيك متعة ، وما في خيالك إلا أن تتسنم الذروة فتبذ أهلك وذوي قرابتك ، وما في رأيك إلا أن تنعم في القرية بالاحترام وتستمتع بالسمو . وأبوك من ورائك يدفعك بالنصيحة ويزودك بالعطف ، يلمس نوازع نفسك الطيبة فتطمئن أبوته وترضى ، ويرى رغبات روحك السامية فتسكن مخاوفه وتهدأ ، ويشهد فيك النزعة الجياشة إلى الرفعة فتسعد نفسه وتستقر

وجلست — ذات مرة — إلى أترابك ، وأنت في سن الشباب ، تحدثهم حديث الفاجعة التي مهدت لك السبيل إلى العلم والعقل . وترامى خبر الحديث إلى أبيك فابتسم في صمت ، وأحس أن عاملين يتصاوران في شدة وعنف ... عاملين من الأسى والضيق ، وقد تيقظت فيه الذكرى الحزينة — ذكرى اليوم الأغـــير فزلزلت جوانبه ، لأنك تذكر الحادثة التي كان يطمع أن تكون قد نسيتها .

وتصرمت أعوام الدراسة في غير وناء ولا بطء ، فإذا انتم ملء العين ، ملء السمع ، ملء الفؤاد ، وإذا أبوكم الشيخ ينتشي يوم أن تخرجتم في الجامعة ... ينتشي نشوة عارمة تنفث فيه روح الشباب الذي ولى منذ زمان ، فيزهو في غير تحرج ويفخر في غير رزانة

آه ، يا صاحبي ، إن الحادثة السوداء ما تبرح وخزاتها تعتمل في قلبك الرقيق فتحول بيتك وبين أبيك ، رب الدار التي ضمتك في حنان ونشأتك في عطف ، فتنطوي عنه إلا حين تصبو إلى عطفه فتطير إليه لتنثر على عينيه معاني الاحترام والمحبة ، فترضى نفسه ويطمئن قلبه ، وتسعد أنت بلقيا الحبيبة حين تراه يرفل في الصحة والعافية ، وينطوي هو عنك إلا حين يدفعه الشوق إلى بنيه ، زهرة العمر وفرحة القلب ونور الحياة ، فينطلق إليك لينفتح أمامه باب دارك الأنيقة يستقبله في كرم ووفاء ، في حب واخلاص

وتصرمت الأيام على نسق فيه الهدوء والراحة ، وفيه الاطمئنان والسعادة ؛ لم تشبه حادثة ولم يعكره شجن ؛ إلا يوم أن جاءت رسالة من أبيك تقول « .. لست أدري ، يا بني ، وما يشغلك فيصرفك عن أن تزورني ، على حين أني أرقب زورتك في شوق ولهفة ، وما منعني عنك إلا أنني أعاني داء عضالا يقعدني عن الحركة والنشاط . ولقد ظننت بادىء ذي بدء — أن الغمرة لا تلبث أن تنجلي وأن السقيم يوشك أن يبرأ ، فكتمت عنك الخبر خشية أن أفزعك بالخبر أو أن أعنيك بالسفر أما الآن ،

وقد عز الدواء وطال أمد الداء ، فلا معدى لى عن أن أكتب إليك على أجد فى رؤيتك شفاء الداء أو راحة الضمير .. »

وتلاقى الأخوة الثلاثة الذين صقلهم العلم وشذبتهم التجربة . تلاقوا لدى سرير أبيهم المريض . ما أجمل الوفاء والرجولة والتضحية وقت الشدة !

ورأيتم — يا صاحبى — الى جانب المريض سداً منيعاً يطمع أن يرد عن الرجل الواهى غائلة العلة ويجهد أن يدرأ عنه سقام البدن ، لا يدخر الوسع ولا يضن بالجهد ؛ وهو بينكم برمقكم بنظرات فيها الحنان والشكر .

وجاء الطبيب يعلن رأى العلم فقال « لا بد من اجراء عملية جراحية . فنظرت فى ثبات وقوة وتقبلت الخبر المفزع بشجاعة وصبر .

وأسر إليك أبوك بذات نفسه فقال « هاك ، يا بنى ، مفتاح الصندوق الذى ينضم على وقر الشباب وذخيرة العمر ، احفظه معك ليكون مالى بين يديك . . »

فقلت وأنت ترد له المفتاح « لا عليك اليوم ، يا أبت ، فمالى كله فداء لك »

قال « لا ريب ، يا بنى ، أن الإيمان حين يتغلغل فى القلب يصل بينه وبين السماء بخيوط من نور تدفعه عن الأرض وتجذبه الى السماء فتصفو روحه فتستشف أشياء من وراء الغيب لا تستطيع الروح الترابية أن تسمو إلى شىء منها . وأنا من بيت فيه الدين والإيمان فلا عجب إن استشفت روحى أن النهاية تدنو منى رويداً رويداً »

قلت والعبرات تترقرق فى محجريك « لا بأس عليك ، فما هى إلا غمرة توشك أن تنجلى »

قال « مهما يكن فى الأمر من شىء فلا بد أن تأخذ هذا المال قبل أن تمتد إليه يد فتعبث به أو تبعثره »

وأصر هو وأصررت أنت ، ولكن يدك لم تصل إلى قرش واحد من أبيك ، عفة وسمواً

* * *

ووضع الطبيب المشرط ثم رفعه ، فأحس أبوك أن الشيخوخة الفانية تتهاوى رويداً رويداً ، فخلا إليك يحدثك حديثاً خافتاً فيه سمات الضعف والإعياء ، قال « الآن — وأنت رجل وأب ورب أسرة تستطيع أن تفهم نوازع الأب وتقدر معنى الآصرة التى تشد بين قلب الأب وابنه — أكشف لك عن أمر عاش فى مسارب دمى عمراً يربى على العشرين سنة ، يخزنى فى قسوة ويؤرقنى فى عنف ، وأنا أكتمه فى خلايا قلبى لا أستطيع أن أتحدث به لرجل من الناس خشية أن تتحطم فى ناظريه كرامتى أو أن تتضع فى نفسه كبريائى . ولكنى لا أحس غضاضة فى أنثره على سمعك ليبلغ نبضات قلبك وليتغلغل فى خفقات روحك أتذكر ، يا بنى ، يوم الحادثة السوداء ، يوم أن أمرت فرفع الطعام من بين يديك — أنت وأخويك — أحوج ما تكونون إليه؟ فأنا منذ ذلك الحين وأنا لا أفتأ أفزع بالأمس وأروع بالحسرة لأننى طاوعت نفسى فأسلمت لفتاة خرقاء فى غير أناة ولا روية . ولطالما نازعتنى نفسى إلى أن أكشف لكم عن خلجات ضميرى وخطرات قلبى ، لأتخفف من عبء ثقيل أرهقنى طويلا ، غير أن أبوتى الشامخة كانت ترتفع عن أن تهبط إليكم لقد أحسست الزلة التى ارتكبت على حين غفلة منى فأردت أن أكفر عنها فأرسلتكم إلى المدرسة لأرى فيكم الرجولة والسمو والتفوق ، ولأنأى بكم عن دفعات الغيرة المضطرمة فى صدر زوجتى ، وها أنتم قد بلغتم الغاية التى كنت أصبو اليها ، فهل ترانى غسلت عن نفسى دنسها ؟ »

فقلت أنت فى رقة « وهل كان لنا ، يا أبى ، أن نجحد فضلك أو ننكر أبوتك ؟ هذا أمر كان ثم مسحه عطفك الفياض ومحته أبوتك السامية »

قال « ولكنه طالما أقض مضجعى وأزعج نفسى »

قلت « هون عليك ، فهذه الذكرى النافهة تبيد من وطأة المرض . أما نحن فلم نجد لذع الحادثة منذ أن أحسسنا عطفك وحنانك »

قال وقد هده الإعياء والجهد « رضيت ، يا بنى ، رضيت »

وحين هوى أبوك تحت ضربات المرض القاسية تشبثت به وتشبث هو بك ، واختلطت عبرة بعبرة وخفق قلب لقلب وتعانقت زفرة وزفرة ثم أسلم أبوك الروح بين يديك وأنت تعانقه فى شوق وتبكى فى مرارة . تعانقه وتبكى فى غير شجاعة ولا صبر فيالقلب ، يالقلب الأب !

كامل محمود حبيب